فاتن غنية خويلد

لحظات

نصوص

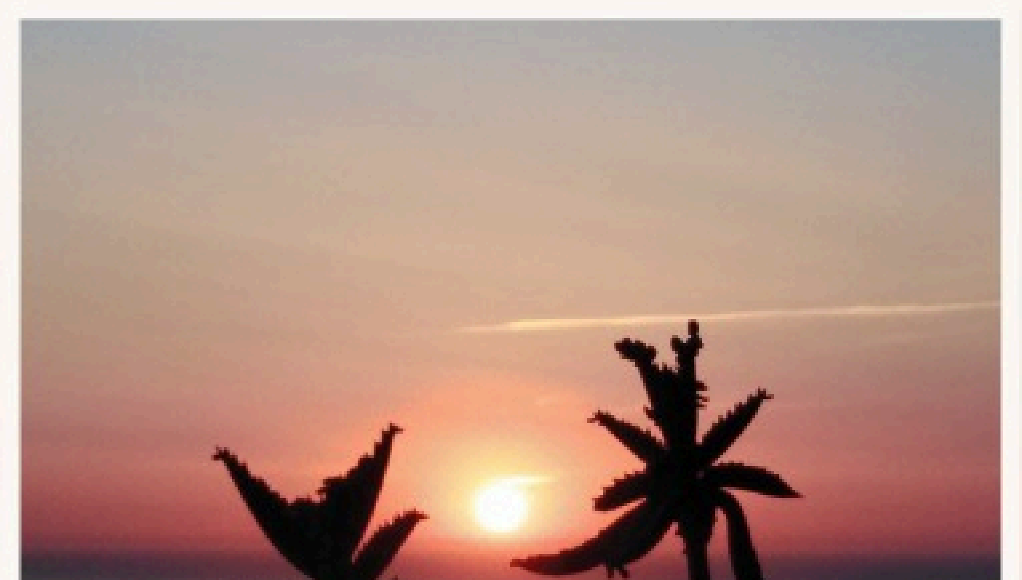

خيال

لحظات

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :978-9931-06-876-1
الإيداع القانوني : أوت 2022.

فاتن غنية خويلد

لحظات

الإهداء

إلى من يشاركون أبطال قصصي نفس القدر

اقتباس

ما ينقصك في الطفولة ستفتقده للأبد، فمن لم يأكل بما فيه الكفاية على طاولة أبيه لن يشعر بالشبع أبدا .

ليتيسيا كولومباني

ونحن أيضا يمكننا أن نطير مثلكم، الاختلاف فقط يكمن عند النزول أنتم تستقبلون في أحضان آبائكم أما نحن فنرتطم بالأرض مباشرة.

يد باردة

ارتقت اليوم درجة أخرى في سلم العقد الثانية من عمرها، وتماما في مثل هذا اليوم من السنة في زمن ماض كانت قد زارت الحياة، لحظتها سجلت حضورها بصرخة لا واعية ابتسمت على إثرها والدتها أما هو فلا أحد يعلم ردة فعله، قيل لها أنه كان يتقن فن الغياب كثيرا أو الأصح كان يجيد التخلي وهذا ما آلمها لاحقا.

وكثيرا ما كانت تسخر من فكرة أن ولادتها في فصل الشتاء تعد صدفة وكأن قساوة الطقس وحزن الطبيعة لم يكن كافيا لها حتى يضيف هو برودة مشاعره ويحرمها من حضنه الدافئ.

هو لم يأت ولم يمسك بيدها قط، يومها قدر لها أن تكون فتاة بيد باردة.

غادرت غرفتها باتجاه الباب الرئيسي أين اعتادت الجلوس على عتبته كلما حل هذا اليوم من السنة وكلها أملا بأن عودة والدها قد باتت قريبة ففي الأخير ما يملكه في الجهة اليسرى من صدره قلب وأنه إنسان سيحن يوما ما فلا يمكن لأحد أن لا يشتاق لصوت طفله.

ولكن ليس هذه المرة فهي لم تقم بانتظاره ليس لأن مخزونها من الأمل في عودته قد نفد بل لأنها المرة الوحيدة التي امتلك فيها حجة قوية في نظرها للغياب، فقد صادفت مؤخرا خبر أنه قد غادر الحياة منذ مدة طويلة حينها شعرت وكأنها مجردة من مشاعرها فقد فقدت الشخص الوحيد الذي تمنت أن يجيبها يوما عن أسئلتها ولكن يبدو أن الحياة أرادت أن تكون عادلة في لعبتها أب لم يحضر ولادة طفلته وفتاة لم تحضر جنازة والدها.

اتجهت صوب المرآة المعلقة في نهاية الرواق ونظرت مطولا إلى نفسها، كانت تريد أن ترى ما آلت إِلَيْهِ بعد كل هذه السنوات والحقيقة أنها قد تغاضت عن كل سبل الجمال فيها ولم تر سوى تلك الطفلة الصغيرة المحتجزة داخلها، طفلة جالسة على رصيف الحياة تضم قدميها إلى صدرها وتبكي كل دموع جسدها. الجميع يردد أن والدها قد تخلى عنها وتركها خلفه ولكن الأمر ليس بهذه البساطة بالنسبة لها فوالدها بالتخلي عنها كان قد كسر إحدى قدميها فما أصبحت عاجزة غير قادرة على السير ولا سليمة قادرة على الركض ولكن بفعلته جعلها عرجاء في أرض موحشة مجبرة على التقدم بنفس وتيرة الحياة.

والآن ما تراه في المرآة روح مكسورة تغطيها كدمات الواقع، فقد كانت تحاول النهوض بعد كل سقوط ولم تجد سبيلا لذلك سوى الاستناد على تلك القدم العرجاء التي كانت تمنحها ألما يفوق ألم السقوط ذاته وأحيانا كانت تريد إيجاد سبيل آخر تفاديا لذلك الألم فتبقى عند نقطة سقوطها وهي تلوح بيدها عسى أن يمسكها شخص آخر ولكنها سرعان ما تعزف عن فكرتها كيف لا وهي فتاة ذات يد باردة.

تراجعت بخطواتها عن المرآة في لحظة وعي فمن مخلفات طفولتها أصبحت تخجل من النظر إلى نفسها ظنا منها أنها قبيحة الوجه وأن هذا هو سبب التخلي عنها تماما كما كانت تعتقد في صغرها أن حصولها على علامات سيئة هو السبب في عدم عودة والدها، وأنها إذا كانت دون أب فهي تستحق كل المعاناة التي سلطها الآخرون عليها وأنها مدينة للجميع لبقائهم بجانبها وحتى لا تقع في أسوار الوحدة تعلمت كلمات الشكر والاعتذار كما تعلمت أيضا الحديث بصوت مرتفع خشية أن لا يسمع أحد صوتها...

حملت قالب الحلوى الخاص بها وأوقدت شموع تناسب سنوات حياتها، أغمضت عيونها وعوض أن تتمنى أمنية اتخذت قرارا عزمت فيه على مصالحة نفسها حتى تفعل ما لم يفعله والدها لها، سحبت الهواء إلى رئتيها وبحركة طفولية ضمت يدها الباردة إلى قلبها المحترق...

أطفأت الشموع ورغم أن يدها لم تدفئ ونار قلبها لم تخمد إلا أن هذه الحركة تليق كبداية جعلتها تضم نفسها لأول مرة.

كنا نود أن نخبرك عن قساوة عالمنا ولكن ترجمة حزننا إلى كلام صار يستنزف منا وقتا ومجهودا لهذا لم نعد نعبر بالعكس أصبحنا نبتلع ألمنا ليلا ونتجه إلى عملنا صباح الغد.

إنارة

بعدما تيقن أنه محجوب عن الأنظار وأن المسافة الفاصلة بينه وبين أبواب المدرسة كفيلة بأن تضمن عدم رؤيته من طرف زملائه في القسم، تمعن بحسرة شديدة في احمرار يديه الصغيرتين وقد شقت دموعه الحارة سبيلا على وجنتيه، رفع راحة يديه قبالة وجهه بحيث لم يسمح لهما بملامسة شفتيه وراح ينفخ فيهما بأنفاسه المتقطعة عسى أن يكون ذلك الهواء البارد سببا في تحسن حالهما وبمجرد أن شعر بزوال ألمه استغل قطعة ثوبه المتدلية على أطراف أصابعه في مسح منبع عبراته محاولا التخلص من آثار دموعه، وما هي إلا لحظات قليلة حتى غادر مكانه راكضا باتجاه بيته وقد عزم هذه المرة على إنجاز واجبه المدرسي.

لامس جسمه الصغير حائط البيت بكل انتباه وحذر فلم تكن هذه المرة الأولى التي تراوده فيها فكرة وقوع عرينه وأن ما يفصله عن هذه الفاجعة سوى رياح قوية مصحوبة بأمطار غزيرة، لهذا اتخذ كل أنواع الحيطة التي نسجها فكره الصغير ففي الأخير لم تكن ضمن أمنياته أن يكون السبب في ذلك، وكالعادة تفحص الأرجاء بعيونه باحثا عن بعض الأوراق التي فارقت أشجارها ليستغلها في تنظيف

بقع الطين العالقة في حذائه مستحضرا جملة اعتادت والدته تكرارها * في طيات عجزنا نصنع من اللاشيء كل شيء*

دخل إلى البيت وقد ترك خلفه الباب مفتوحا على مصراعيه في سبيل أن تتسلل بعض الأضواء المتطفلة لتزيل ظلمة البيت الحالكة، ورغم أنها لم تكن بنفس تأثير تلك الإنارة النابعة من الزر العجيب الذي تكبس عليه المعلمة في كل مرة يدخل فيها التلاميذ إلى القسم إلا أنها كانت كفيلة لتمكنه من رؤية قطعة الخبز التي حضرتها له والدته قبل مغادرتها للعمل موضوعة بجانب كوب من الماء، وبعدما أسكت الفتى عصافير بطنه تقدم بخطوات مترددة إلى الركن الذي اعتادت والدته العمل فيه ليلا، حيث تقوم بترقيع الثياب البالية التي تجدها صباحا بعد مدة طويلة من البحث والتنقل وتعيد بيعها في اليوم الموالي، وبينما جابت قدماه المكان وقع نظره على تلك الشمعة المخفية بين أطراف الأقمشة، ولن ينكر أن فكرة الاستيلاء على تلك الغنيمة قد زارت عقله لو لم تمنعها نسمات براءته التي ذكرته بحاجة والدته لها وكأنها أوحت له بأن فتيل تلك الشمعة يجب أن يوقد الليلة من أجل عمل والدته وإلا لن يجد ما يسد رمقه يوم غد، كانت فكرة الجوع مخيفة بالنسبة لطفل في سنه لهذا لم تستغرق مدة عدوله عن

قراره وقتا طويلا، وقبل مغادرته البيت سحب سجادته واضعا إياها داخل حقيبته وهم بالمغادرة متجها إلى الحي الجديد.

في هذه الأثناء كانت الشمس قد أشرفت على المغادرة وما هي إلا لحظات حتى وجد الطفل أن الظلام قد صار المرافق الوحيد له، ومن حسن حظه أن ذلك لم يدم طويلا فبمجرد أن وطأت قدماه الصغيرة الحي، شعر وكأنه اقتحم عالم الأنوار، فقد كانت كل إنارات الحي مضيئة، مكث بضع ثوان في مكانه وراح يتفحص الأرجاء بنظره وحين تيقن من وحدته، اتجه إلى عمود الإنارة الموجود قبالته، وضع سجادته على الأرض بجانب العمود حتى لا تتلف ملابسه وباشر بحل واجباته المدرسية...

نظرات أوقدت فتيل التنمر، توهج البيت بسخريتهم
ضحك الجميع واحترقت هي

أحمل ندباتي وكأنها ميداليات

اخفضوا أصواتكم عندما تتحدثون عنا فالكلمات ناقلة للألم .

وضعت القلم جانبا بعدما انتهت من كتابة آخر سطر على مذكرتها ثم تراجعت بجسمها إلى الخلف تاركة مسؤولية حمل ثقله على كرسي المكتب، محررة تنهيدة جمعت فيها كل شظايا يومها، ولم يستغرق هذا الوضع سوى بضع دقائق لتعود لوضعية الاستعداد مجددا أخذت نفسا عميقا شعرت من خلاله وكأنها تسحب كل هواء الغرفة إلى رئتيها، ورغم أن فكرة نفاذ الهواء من الغرفة تعد سخيفة بالنسبة لفتاة تجاوزت العقد الثاني من العمر إلا أنها كانت كفيلة لتوقد بداخلها فتيل الذعر لتجد نفسها تسابق الزمن بخطواتها السريعة متخذة من نافذة الغرفة ملاذا لها.. ففي النهاية هي لا تود أن تعيش نفس الكابوس مرة أخرى يكفيها ذلك الكم الهائل من الذكريات القاسية التي التقطتها من ألسنة ذلك اللهيب الحارق ...

فتحت النافذة فتسابقت أيادي النسيم الباردة لتنال شرف لمس وجهها، في هذه الأثناء كانت الشمس قد حزمت أشعتها وغادرت مجال الرؤية تاركة المناوبة لنجوم تناثرت في الأرجاء مزينة السماء بضوئها الطفيف معلنة بداية فترة

الهدوء، تشبه في تفاصيلها أم تطبع قبلة على جبين رضيعها متمنية له ليلة سعيدة ...

تفحصت الفتاة بعيونها كل الأرجاء وبما أن الليل قد خيم فقد كان الظلام بمثابة ضوء أخضر سمح لها الولوج خارج قوقعتها حيث يمكنها النظر إلى العالم الذي يستحيل أن ينظر إليها ...

تعمدت إعادة شريط يومها إلى اللحظة التي طرق فيها الباب، ولأن المواجهة ستزور دفاتر حياتنا يوما وجدت نفسها مضطرة لاستقبال الزائر بعدما أدركت أنه لا يوجد في البيت سواها، وقبل أن تهم بفتح الباب جعلت خصلات من شعرها تنسدل على طرف وجهها الأيمن كرمز لإخفاء شيء حصر في الماضي ولكن أطيافه تغزو الحاضر ...

كان الطارق طفل ينحصر عمره في بضعة سنوات وبمجرد أن فتحت الباب، انساب نظره إلى الطرف المخفي من وجهها وقبل حتى أن يعرف بنفسه جمع آلاف الأسئلة التي احتلت مساحة لا بأس بها في عقله الصغير

-ولكنك إذا أخفيتها لا تزول...

-ماذا تقصد؟

همس بصوت خافت: تلك التي على طرف وجهك الأيمن

-من أين تعرف هذا أيها الصغير؟

-كل الحي يعرف... أصلا نحن نناديك ببطلة النار

ابتسمت الفتاة من طريقة كلامه وراحت تسأله :

-جميل... ولكن من أنتم؟؟

-أطفال الحي... أصلا هذا هو سبب قدومي، سنقدم غدا مسرحية سأكون فيها البطل ولكنني أجهل الطريقة المناسبة للهروب من التنين عندما تحيط بي نيرانه وبما أنك بطلة النار ستساعدينني أليس كذلك؟

جثت الفتاة على ركبتيها حتى تساير فضوله .

-أممم، إذا كان عليك حماية شيء ما ستجد سبيل للنجاة

-مثل ماذا؟؟

-لا أعلم، شيء تحبه كثيرا

-أنا أحب قطتي، وأنت من قمت بحمايته؟؟

ردت الفتاة بصوت تغلب عليه نبرة الافتخار :

-كان أخي

-هل تؤلمك؟؟

اندهشت الفتاة من سؤاله المفاجئ فهي لا تتذكر أن أحدا ما قد سألها إذا كانت تتألم

-لا لا أبدا

-ولماذا تقومين بإخفائها؟؟

-لأنها ليست جميلة ...

-لو قامت بتقبيلك والدتك حينها لزالت، فكل جراحي حين تقبلها أمي تزول

ضحكت الفتاة من كلماته وشعرت لوهلة أنها نقلت إلى عالم بريء جدا، وبكل عفوية قالت:

-لو كنت مكاني، هل ستخفيها؟

-لا لن أفعل

-ألا تخشى سخرية الآخرين؟

-أمي تقول أن الآخرين يسخرون منا في البداية فقط ولكن حين يعتادون علينا، لن يسخروا مجددا ..

انقطع تفكير الفتاة في اللحظة التي أوهجت فيها إنارة الحي لتعود بهدوء إلى داخل غرفتها تاركة النافذة مفتوحة خلفها، ارتمت على سريرها وأمسكت بكتابها في سبيل أن تغير مجرى تفكيرها، فوقعت عيونها على اقتباس لامس روحها

-أحمل ندباتي وكأنها ميداليات*

حملت جسدها، وسارت بخطوات ثابتة نحو المرآة نظرت الفتاة إلى تلك الندبة الموجودة على الطرف الأيمن من وجهها مطولا... وراحت تردد سيسخرون في البداية ولكنهم سيعتادون، سيعتادون حتما ...

حتى وإن كان الجرح يبدو تافها هذا لا ينفي أنه نزف

أسميتها

شعرت لوهلة وكأنها رهينة مخاوفها عندما تذكرت أن الغد هو يومها الأول في المدرسة، ولكن هذا لم يدم طويلا فحقيقة تغييرها لمقر دراستها جعلتها تسترجع أنفاسها وتهدئ من روعها، فهنا لا أحد من زملائها يعرفها بالإضافة إلى أن المعلمة هي الأخرى قد التحقت بالمدرسة حديثا وبالتالي فكرة انكشاف سرها الصغير تعد مستحيلة لو أن حيلتها تنجح ولو أن أخاها يفي بوعده هذه المرة...

قطع تفكيرها بمجرد أن اقتربت من بقالة الحي تحسست بيدها الصغيرة تلك الدنانير الموجودة في جيب سترتها ثم همت بإخراجها بكل حذر واضعة إياها في راحة يدها، كان الطابور عند البقالة قد احتل كل مساحة الرصيف وهذا ما جعلها تتمعن بعيون يائسة في طوله وقد كتمت عبارات السخط والتذمر في مكان ما في قلبها من جهة هي تدرك أنها ستتأخر عن مشاهدة كرتونها المفضل لو انتظرت ومن جهة أخرى لا تملك سبيلا غير هذا، تماما كما جاء في الاتفاق، ستقوم بشراء كل ما يطلبه أخوها مقابل أن يصمت...

وضعت حبات الحلوى وما تبقى من مصروفها اليومي في جعبته، أين كان ينتظر قدومها عند مدخل البيت وحتى تخفي تجاعيد حزنها رمقته بابتسامة انتصار، تلك الابتسامة التي كلفتها بكاء كل دموع جسدها بمجرد أن اختلت بنفسها بين جدران غرفتها، وقبل أن تغادر الشمس مكانها اتجهت الفتاة الصغيرة إلى والدتها بقلب بريء وروح مكسورة

-أمي... أليست جدتي الكبرى هي جدة أبي

-نعم يا عزيزتي

-هل أنا أشبهها؟؟

-ما سبب هذا السؤال؟

-لا شيء...

-لا أعلم يا صغيرتي فأنا لا أتذكرها جيدا...

-هل تتذكرينها عند رؤيتي؟؟

-وكيف لي أن أتذكرها يا صغيرتي، وأنا لا أعرفها سوى من بضع الصور التي أرتني إياها جدتك.... ولكن ما سبب هذه الأسئلة حول جدتك الكبرى...

-لا شيء أمي، ولكن لا أحد يتذكرها في البيت

-لقد توفيت منذ زمن بعيد ربما لهذا السبب نسيها الجميع

-إذا لماذا لم؟؟

-ماذا؟؟

-ففي الأخير أنا لا أشبهها كثيرا ولا أحد يتذكرها عند رؤيتي فلماذا أحمل نفس اسمها؟؟

نظرت الأم بحزن شديد في عيون طفلتها فهي لا زالت تتذكر تلك اللحظة التي أجبرت فيها على قبول الاسم الذي تم اختياره لطفلتها رغما عنها، اسم دفن في الزمن الماضي... وحتى تخفي حزنها عن ابنتها ابتسمت ابتسامة مصطنعة وقالت:

-ولكنه اسم جميل يا صغيرتي أليس كذلك؟

-لا أراه كذلك يا أمي، لطالما سخروا مني بسببه... تمنيت كثيرا لو لم نتشارك أنا وجدتي الكبرى نفس الاسم...

دقت الساعة الثامنة ليلتحق جميع التلاميذ بمقاعدهم، دخلت الفتاة القسم واحتلت مساحتها الصغيرة، بدأت المعلمة بتسجيل الحضور وحين تلفظت باسم الفتاة الصغيرة، تعالت السخريات وراح الجميع يبحث بعيونه عن صاحبة الاسم، لحظتها جمعت الفتاة شتات شجاعتها، ورسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها وحتى لا تلفت الأنظار إليها همت بتقليد الجميع وكأنها هي الأخرى تبحث عن صاحبة الاسم...

ويصادف أن يضم التراب عزيزا فيقدر أن يبقى
فراقكما عالقا دون وداع

الغائب

لم تكن بحاجة لسماع لحن المنبه حتى تستيقظ باكرا هذا الصباح، فقد كان حماسها كفيلا لجعلها تغادر فراشها وتبدأ في تحضيراتها المعتادة تماما مثلما تفعله كل مرة عندما تصادف هذا التاريخ من كل شهر، سحبت أطفالها من نومهم العميق وهي تغرد بأهازيج البهجة مطالبة إياهم بارتداء أجمل ما لديهم رغم إدراكها التام أن تلك الكومة من الخشب الموضوعة في الزاوية يستحيل أن تتضمن ما تحلم به ولكن لا بأس في ذلك فبالنسبة لها يكفي أن تكون الثياب نظيفة، متيقنة أن الجمال يكمن في عيون المحب...

حملت شوقها داخلها وغادرت رفقة طفليها تاركة خلفها ملجأها ورغم أنه لم يكن سوى خيمة إلا أنها اعتبرته وطنا لها لا ينقصه سوى ظل ذلك الغائب، وبينما كانت مغادرة استرقت النظر إلى من يشاركنها نفس القدر وقد أجهضن منذ مدة هذا الحلم الذي لا زالت تحمله هي، كانت عيون بعضهن تزيدها أملا أما العيون الأخرى فحاولت إخبارها أن ألم الخيبة يكون بحجم ارتفاع توقعها...

زحفت عقارب الساعة وقد اصطحبت برفقتها ستين فرصة من اللقاء، أما هي فلا زالت جالسة على حافة كرسي المحطة تسقي بدموعها شوقا انحصر داخلها وتقلب بيديها أطراف تلك الرسالة، وحده النظر إلى أثر ذلك الغائب كان قادرا على إخماد الألم داخلها.

كانت الرسائل الرابط الوحيد الذي يجمع بينهما، ذلك الرابط الذي تلفظ هذا المكتوب الأخير وانقطع قبل سنة من الآن، ومع ذلك فهي لم تشعر بحجم الفراغ داخلها وقتها، خاصة وأنه في الرسالة أخبرها أن عودته إلى أرض الوطن في نفس تاريخ اليوم ومنذ ذلك الوقت وهي ترتاد هذه المحطة وكلها أمل أنه أخطأ في كتابة الشهر...

قطع تفكيرها بعدما لمحت أملها الأخير قادم فقد كان هذا القطار آخر رحلة تستقبلها المحطة لنهار اليوم جمعت حطام نفسيتها وهرولت وسط الحشود تقلب بنظرها عن وجه كانت تبحث عن ملامحه تارة في ذاكرتها وتارة أخرى في تلك الصورة المرفوقة بالرسالة.

سرح عقلها في تلك الأحداث التي تدور حولها بينما تسمر جسدها في مكانه، كانت ترى نفسها في تلك الأحضان التي يتشاركها المقبلون مع أهلهم، وفي كل دمعة يذرفها المنتظرون عندما تعزف سمفونية اللقاء، أما ذلك الغائب فقد كانت تلمح شكله في كل شخص يغادر القطار...

امتزج صوت ابنها مع إيقاع الشوق داخلها، وكبلت كلماته آخر أمل لها:

-أين أبي، ألن يأتي هذه المرة أيضا...

غادرت المحطة وهي تجر طفلين بين يديها وخيبة بحجم الشوق الذي أحنى ظهرها، وصلت إلى خيمتها التي تحدها آلاف الخيم من كل جهة وعلى مدخل تلك الأراضي قد وضعت لافتة دونت عليها عبارة... مخيم اللاجئين...

وضعت طفليها في عرينها المزعوم وهمت هي مسرعة باتجاه تلك الشاحنات التي أحضرت بعض المساعدات عسى أن تأخذ نصيبها اليوم، مكثت طويلا وهي تنظر إلى تلك الطوابير الموجودة لتستقر أخيرا في طابور الأرامل...

تمطر التفاصيل فجأة فنغرق في أمواج الذكريات

حياة

لامست مياه البحر الدافئة أطراف قدميه بعدما استقر بقامته المسنة على حافة الشاطئ، أخذ نفسا عميقا سحب من خلاله بعض نسمات الهواء الباردة بينما كانت عيونه تغازل الأفق، لم يكن ضوء النهار قد سطع في هذه الأثناء وحتى بقايا ظلمة الفجر لا زالت تزين ربوع السماء، وبينما كان ينتظر رفقاء زمنه عادت به ذكرياته إلى عشرين سنة ماضية أين كان يقف في نفس المكان حاملا في جعبته حقيبة ظهر والكثير من الأحلام منتظرا رفقاء ذلك الزمن.

يومها امتزجت روحه بالعديد من المشاعر ولكن وحدها الرغبة في المغادر من احتلت قلبه، أو النجاة كما أطلق عليها هو وقتها، وحتى لا يترك للتردد مكانا في نفسه دفع القارب برفقة من يشاركونه نفس الحلم وقبل أن يغادر رمق المكان بنظرة أخيرة وعلى حافة لسانه كم من الكلمات جلها تحوم حول الوطن، الحرية، الرفاهية ولكن كان كل ما استطاع إفلاته هو سامحيني أمي...

عاد المسن من هفوته بعدما استشعر حضور رفقائه وما هي إلا برهة من الزمن حتى صعد إلى القارب ولكن هذه المرة من دون أن ينطق بشيء.

كانت الرحلة مختلفة بعض الشيء لا تتشارك مع سابقتها نفس التفاصيل كيف لا والفارق بينهما عشرون سنة من الزمن وأرواح قد أنهكتها صفعات الحياة...

في السابق بمجرد أن غابت اليابسة عن أعين الشباب أوقدت أرواحهم وأطلقوا العنان لأحلامهم وأهدافهم التي احتجزت طويلا على أرض وطنهم أي في الطرف الذي صار خلفهم الآن...

أما الآن فقد كان حوارهم لا يخلوا من مقاطع الصمت التي تزينها بعض الكلمات والتي غالبا ما كانت تتمحور حول عبر الحياة وفنائها، ولعل قساوة تلك التجارب هي ما جعلت العجوز يستنجد بتعبه ليغمره في نوم عميق عسى أن يستيقظ بعده متصالحا مع الماضي والحاضر...

شعر بقشعريرة تسري في جسده بمجرد أن أسند رأسه فتسارعت دقات قلبه فجأة، وصار صوت أنفاسه كالصدى يقرع في عرض البحر.

في هذه اللحظة تراجع شريط حياته مرة أخرى إلى تلك الرحلة الماضية التي استيقظ فيها على وقع أصوات مرعوبة ومشاهد أكثر رعبا، كان محرك القارب قد تعطل، والشباب قد أنهكهم الخوف وصار الموت مرافقهم الوحيد ولم تمض بضع ساعات حتى شحبت السماء وأفضى البحر بجل غضبه تاركا خلفه قاربا مقلوبا وجثثا موزعة في أرجائه وناجي وحيد تلفظه الأمواج من مكان لآخر.

استيقظ العجوز من إغمائه بعدما لامست قطرات المياه وجهه ليلمح رفقاؤه حوله يحاولون الاطمئنان عليه وبعد أن عاد إلى وعيه، مكث في مكانه وقد أسند رأسه على يده وكأنه يتوسل للنسيان أن يسرق منه هذه الذكرى ويلقي بها بعيدا حتى لا تزوره مرة أخرى وبنظرة واثقة طمأن رفقاؤه معلنا إكمال الرحلة...

أشارت الساعة إلى بداية النهار، وغادر صوت المحرك القارب تاركا إياه في وسط البحر، قام العجوز من مكانه واتجه إلى معداته، أخرج شبكة الصيد الخاصة به ولمح زملاءه مشيرا لهم أنهم في المكان المناسب وقد علا صوته قائلا:

يبدون أننا سنحظى بصيد وفير اليوم

وحيدة هي لدرجة أنه حين كان الجميع يصافح الألم
كانت هي تعانقه بشدة

أجنحة مبثورة

تسابقت بخطواتها البطيئة نحو الباب الرئيسي محاولة العبور إلى خارج أسوار هذا الجحيم، وقبل حتى أن تلامس يدها مقبض الباب كانت يده قد فتكت بخصلات شعرها المنسدل، ليسحبها أخيرا بكل غضبه إلى الخلف وكأنه يروي لها بفعلته هذه أن سبيل النجاة قد تم سده لحظتها تسلل اللاشعور إلى داخلها ففي الأخير هي تدرك جيدا نهاية هذا الأمر ولكن على سبيل الأمل تمنت للحظة لو أن هذا الألم ينتهي بسرعة، لهذا حاولت العزف على إنسانيته الصماء بنبراتها المختلطة بالتوسل تارة وبالبكاء والصراخ تارة أخرى ولكنه مع ذلك لم يتوقف...

خارت قواها فاستسلمت لضعفها حينها أقسمت قدمها على عدم حملها هذه المرة، وبضربة منتظرة منه ارتطم جبينها بحافة الأرضية، تحطم قلبها فذرفت عيونها أنهارا من الدموع، وحده الصوت الذي أصدره الباب بعد مغادرته من أعاد النفس إلى روحها، رمقت أسفل تلك الطاولة بنظرات يائسة وقد تحررت أحبالها الصوتية قائلة يمكنك الخروج يا صغيري لقد نجونا....

كان الطريق المؤدي إلى المشفى شاقا بالنسبة لامرأة في حالتها، فقد كانت المسكينة تداعب بيدها اليمنى دموعها الممزوجة بدماء جروحها أما بالنسبة لليد اليسرى فقد وهبتها لطفلها الصغير عسى أن يشعر بدفئها فلا يكلفها عناء الكذب وروايات العالم الوردي وأنها بخير وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

شعرت بخجل شديد عند مقابلتها للطبيب، وكأن فعلة زوجها كانت بمثابة لعنة تلاحقها حتى في أضعف حلقاتها ولكن هذا الشعور لم يدم طويلا فسريعا ما تداركت الأمر وهمت بالاجابة على أسئلته وفي أعماقها صوت يردد فليخجل الفاعل.

عالجت جراحها وغادرت المشفى وفي جعبتها وصفتها الطبية وورقة تثبت عجزها، توقفت للحظة حتى تسترجع القليل من وعيها متخذة من الحائط سندا لها وبمجرد أن لامس كتفها برودة الحائط حتى راودتها فكرة سقوطه ففي الأخير هي فتاة لم تسندها عائلتها فلماذا يتولى الجدار ذلك ولوهلة تسللت من شفتيها ضحكة ساخرة مغلفة بمشاعر من الغيظ جعلتها تسحب هاتفها وتباشر في كتابة رسالة إلى أهلها، كانت تود إخبارهم بأن الحياة التي تعيشها الآن لم تكن ضمن نطاق تخيلاتها وأن عقلها الصغير لم يعد يتحمل حدة مشاكلها وأن جسدها قد أضحى مكبا لغضب زوجها

وأن روحها قد أرهقت من كثرة التفكير كانت تريد إخبارهم أيضا بأنهم لم يكونوا في مستوى توقعاتها وبأن غيابهم هو سبب فراغ جوفها وأن كلمة عائلة التي كانت تتغنى بها ألسنتهم لم تكن سوى لحن اعتادوا على عزفه في المناسبات وبأنها الآن تقاوم فقط من أجل طفلها، أرادت أن تخبرهم بشدة بأنه كان عليهم منعها من الزواج في تلك السن الصغيرة. ولكن رغم تضارب الكلمات في داخلها إلا أنها لم تتمكن من كتابة كل ذلك و اكتفت فقط بمرافقة صمتها .

أخرجت الورقة التي تثبث عجزها ونظرت مطولا إلى مركز الشرطة الموجود قبالتها، جمعت شتات شجاعتها واتجهت نحوه، وعندما سألها الشرطي إذا كانت بحاجة للمساعدة، تذكرت شدة وحدتها فنظرت إليه بعيون دامعة وطلبت منه إرشادها إلى أقرب صيدلية حتى تبتاع دواء يخمد ألمها.

وحين كانت تلك الأغصان تقطع كان هو يمهد طريق
الماء حتى تروى الشجرة

المكافأة

اخترقت أشعة الشمس زجاج النافذة وراحت تلامس وجه العجوز ساحبة إياه من غفوته، رفع رأسه من على الطاولة ببطء شديد وقد رسمت ملامحه آثار الألم الذي خلفته تشنجات عضلاته، استعان بيده اليمنى في إسناد رقبته وبحركات هادئة تميل نحو اليمين تارة ونحو الشمال تارة أخرى تمكن أخيرا من التخفيف من ألمه   كان يعلم هذه المرة أنه لا علاقة لسنه بذلك وأن كل اللوم يقع على عاتقه فهو الذي اختار قضاء الليلة في الخياطة لينتهي به المطاف نائما على كرسيه الخشبي وقد ألقى برأسه على حافة الطاولة ولكن رغم ذلك كانت روحه سعيدة فإنجازه أنساه كل شقاء الليلة الماضية وحتى التي قبلها وها هو الآن ينظر بفخر لنفسه أولا لأنه اجتمع بآلة الخياطة بعد مرور كل تلك السنوات وتمكن من إيقاظ موهبته التي فارقها بعدما خانه بصره وثانيا لأنه يحمل هذا الفستان الوردي بين يديه والذي سيكون أول هدية سيقدمها لحفيدته التي لم يرها منذ أكثر من ثماني سنوات.

كان الاتصال الذي تلقاه ليلة الأمس بصيص أمل بالنسبة له فهو لم يعتد على كثرة الحديث مع ابنه ليس لأنه يأبى ذلك ولكن مشاغل الحياة، العائلة والعمل كانت حجج ابنه الدائمة، أما هذه المرة كان الأمر مختلفا فقد أخبره في مكالمته أنه سيزور البلدة رفقة عائلته الصغيرة وسيحطون الرحال بجانبه حتى نهاية العطلة، في الواقع كان سيكون هذا الخبر مفرحا في عيون كل المتلقين أما بالنسبة له فقد كان بمثابة نفس آخر وكأن الحياة احتضنته من جديد هذا ما جعله يخون وحدته للمرة الأولى ورأى أن إسعاد ضيوفه مهمته الوحيدة الآن.

وبما أن اليوم هو اليوم الموعود وأنه انتهى من تحضير هدية حفيدته استغل الوقت المتبقي في تنظيف البيت وإعداد الغرف، ليغادر بعدها باتجاه السوق ومن شدة حماسه تخلى حتى على مبدأ الأكل الصحي واقتنى كل ما رأى الشباب يتهافتون عليه، وفي طريق العودة مر بجانب حقله الذي لا يبعد عن بيته سوى بضعة أمتار قليلة حتى يتفحص حال محاصيله التي نالت منها الطيور في السابق ولكن بعدما صنع تلك الفزاعة ووضعها في منتصف الحقل تغيرت الأمور نحو الأفضل، مر بجانبها وأنزل قبعته لها على سبيل الشكر.

غادرت الشمس قوس السماء وحتى هذه اللحظة لم يطرق باب العجوز أي أحد، تناول فكره بعض الأفكار السيئة كأي أب وجد ولكن رنين الهاتف أثلج صدره بمعنيين، أما المعنى الأول فقد كان لسلامة ابنه وعائلته والثاني كان للخيبة التي حطت رحالها بجانبه، فلا أحد سيأتي اليوم ولا غدا ولا حتى بعد غد فمشاغل الحياة والعمل وتلك الحجج قد ظهرت من جديد والمكالمة ختمت ب:

-أعدك أن نكون بجانبك العام القادم...

ارتكز العجوز على ثقله وحمل في جعبته الفستان الوردي متخذا من الحقل سبيلا له، نظر مطولا إلى تلك الفزاعة التي لم تخيب ظنه وحمت محاصيله من التلف فرأى أنها أولى بهذه المكافأة، لهذا زينها بذلك الفستان وقبل أن يغادر حمل في كفه بعض الحبوب، ووضعها عند مدخل الباب وعلى حواف النوافذ عسى أن تزوره الطيور يوم غد...

لكل خطأ ثمن وأحيانا يكون الثمن المقدر عليك دفعه غاليا جدا، مثلا أن ترى الحياة أنك غير لائق لنيل فرصة ثانية، فتسجن في ذنبك للأبد.

ثمن الخطيئة

سحبت الأرض من تحت قدميه وأوشك الوعي أن يغادر أسوار عقله، لحظتها شعر بثقل جسمه ينخر قواه المتبقية فما كان له سوى أن يشفق على ظهره الذي كبده عناء حمل كل هذه الكتل من الأخطاء التي لم يظن يوم أن ثمنها سيكون باهظا جدا...

لم يكن سمعه قادرا على استقبال كل ذلك الكم الهائل من الكلمات التي تلفظ بها القاضي، وحده الحكم بالسجن لمدة اثنتي عشرة سنة من كان له وقع على فتات كيانه.

تسللت برودة المكان إلى عظامه وانتابه الخوف لأول مرة في حياته، تمنى وقتها لو أنه لا زال طفلا صغيرا يجهل التفريق بين اليوم، الأسبوع والسنة، اثنتا عشرة سنة وحده اللسان قادر على ترديدها بهذه البساطة...

لم يسمح لدموعه أن تشهد هذا الموقف وكغريب تمت خيانته في وطن غير وطنه، صاحب ظله واتجه إلى الحياة التي سيحتضنها اثنتا عشرة سنة، وقبل أن يغادر المحكمة سحب عيونه نحو تلك التي لم يهبها سوى الألم منذ أن زلت قدمه عن الطريق الصحيح ومع ذلك لا زالت بجانبه متناسية كل أخطائه وفؤادها ينبض باسمه قائلا هذا ابني...

تمعن في تفاصيل وجهها للمرة الأخيرة، تحررت دموعها هي فانهار هو...

تتابعت الأيام والشهور وهاهو الزمن قد رسم تجاعيده على نسخة الشاب السابقة فلم يعد الصغر يخدمه ولا القوة تسع جسده، كل ما تبقى له قد انحصر في الكثير من الصبر وشعلة من الأمل عسى أن تسعفه الحياة بفرصة ثانية...

كان داخله خاو من كل الأحاسيس وكأن المدة التي قضاها بين جدران هذا المكان قد جردت روحه من العالم الذي اعتاد العيش فيه، والحقيقة أن هذا الوقت كان كافيا ليصل إلى خلاصة أفكاره هل استحق ذلك الأمر كل هذا العناء... لا لم يستحق أبدا، فالوقت قد مر والحياة استمرت وبقيت أجراس التأنيب تقرع على أبواب ضميره...

سنة واحدة تفصله عن الحرية، ورغم أن هذه المدة تعتبر طويلة بالنسبة لمن يقف في الضفة الأخرى من قارب حياته إلا أنها كانت بالنسبة له مجرد رقم سيمر ساحبا معه جزء آخر من تفاصيل حياته. لهذا عزم على كتابة رسالة إلى والدته خاصة وأنها لم تقم بزيارته منذ أشهر عديدة فمن جهة هو يدرك أن معها حق فامرأة في سنها لا يليق بها هدر صحتها وطاقاتها في قطع كل تلك المسافات ومن جهة

أخرى كان يحن لرؤيتها فالمرء يشتاق لرائحة أمه، وحتى يخفف من ألم روحه باشر في كتابة كلماته:

إلى من تخلت عن حياتها فداء لحياتي... إلى أمي

لطالما حملت أعباء الكون على كتفيك ولم تشعري بثقل حملك لأنك كنت ترينني بمثابة منقذ يشد قامتك عند عجزك فهان عليك شبابك وحياتك من أجلي ليظهر لك الزمن أنني كنت أنا أثقل همومك وأكثر من هانت عليه دموعك، لا أدري إذا كان الاعتذار يليق بحجم الطعنات التي غرزتها في قلبك ولكنني حقا أعتذر...

بينما كانت يداك تبحث عن الترياق، كانت يدايا تلامس مرارة العلقم حينها قتلت ابنك الطبيب والمدرس والطيار ورغم ذلك احتضنتني روحك المسالمة وأخبرتني أنه يكفي أن أكون صالحا فقط، ولكن حتى هذا لم أفلح به.

تخليت عن دفء حضنك وألقيت بنفسي في طرقات من يشاركونني نفس القدر، ذهب الجميع ولكنك بقيت أنت لهذا أنا حقا أعتذر فأرجوك سامحيني...

توقف الشاب عن الكتابة عندما تلفظ حارس الزنزانة باسمه مخبرا إياه أن لديه زيارة، ولم يتمكن من إخفاء ملامح الدهشة الممزوجة بالسعادة التي رسمت على محياه فبعد تلك الشهور القاحلة التي أضحى بها منسي ها هي تنبث الآن أملا.

سارع بخطواته لا زالت الشوق، كان القادم شقيقه وقبل حتى أن يسأله عن حالته، راح يسأله عن سبب عدم قدوم أمه.

-لماذا لم تأت معك اليوم، أهي متعبة؟

-أرادت منك أن تكون رجلا... كما أنها قد سامحتك ومنحتك كل رضاها.

شعر بغرابة في نبرة صوت شقيقه وبمجرد أن أوشك على السؤال استأنف شقيقه الحديث قائلا:

-البقاء لله... ادعوا لها بالرحمة.

يقال أن الأحلام لا تموت وأنه يروق للإنسان تدوينها على أوراق الواقع، عسى أن يقرأها الزمان يوما.

حلم مؤجل

يرطم الأرض بخطواته الغاضبة بينما تسوقه قدماه ذهابا وإيابا في الرواق، يلفظ بعض الكلمات المشفرة معبرا عن سخطه وقلة صبره تحاول زوجته تهدئته بين الفينة والأخرى مذكرة إياه أنهم بين جدران المشفى وأن حالته هذه تؤثر على مرافقي المرضى، يركز جل غضبه في نظرة واحدة ويرمق زوجته بعيون محمرة تتحاشى المسكينة النظر إليه فتعود إلى مقعدها، يتعالى الصراخ من داخل الغرفة المجاورة فتحتضن قلبها حتى لا يمزقه اللوم أطرافا...

اتجه صوب الطبيب بعدما لمحه يغادر الغرفة:

-ألن يغادره هذا الألم؟

-أخبرتك من قبل أن المخدر لم يعد يجدي نفعا وأن اللجوء إلى العملية صار أمرا حتميا.

يستنكر ما سمعته أذناه بحركة نفي بيديه وهو يردد:

-مستحيل... لن أوافق أبدا

-إذن في هذه الحالة يجب عليك أن تمضي على هذه الأوراق حتى تتحمل العواقب في حالة حدوث مضاعفات له.

جلس على حافة الكرسي وقد ضم رأسه إليه بكلتا يديه محاولا إسكات ذلك الأنين النابع من الغرفة وما هي إلا ثوان عديدة حتى حرر تنهيدة مصحوبة بما يكنه جوفه:

-أنت السبب في كل هذا... تعلمين ذلك... كيف ينجب المرء طفلا ضعيفا إلى هذه الدرجة... أيعقل أن يصدر صوت النحيب من شاب في سنه؟

-إنه مريض...

-لا أنا السبب في ذلك... كان يجب علي أن أكون أقسى بكثير، لن يجري العملية، عليه أن يكون رجلا يتحمل الألم ويتجاوزه... أتظنين أن هذه الأوراق ستخيفينني؟

-أنا أفهمك ولكن الأولويات قد تغيرت... حياة ابننا هي الأهم.

-أنت لا تفهمين أي شيء... أتعلمين ماذا تعني العملية تعني أن ندبتها ستلازم جسده طيلة حياته ومعناه أنه لن يقبل في الجيش والباقي تعرفينه أصلا، ستنهش البطالة جسده وسيحتضن الفقر حياته، سيصير نسخة مصغرة عني...

-لا تنظر إلى الأمور بهذه السوداوية، لطالما كان الالتحاق بالجيش حلمك أنت لا هو.

-لهذا لا أريده أن يكون مثلي أريده أن ينجح فيما عجزت أنا عن تحقيقه.

غادرت دموعه عرينها وسقط هو بحجم ثقل ضعفه وغضبه، اقتربت منه زوجته بهدوء، سحبت الأوراق من يديه وهمست في أذنيه قائلة:

لقد سبق أن تخليت عن هذا الحلم في الماضي لهذا لن يتألم إذا تخليت عنه مرة أخرى، ولكن ما يصدر من تلك الغرفة هو صوت طفلي وأنا لن أتخلى عنه...

وعلى لافتة الدخول كتب هنا قلوب انقطع نبضها

أنفاس متقطعة

عدلت جلستها بكل عناية بعدما اتخذت من العكاز سندا لها ثم ركزت كل نظرها على شاشة التلفاز منتظرة بداية مشهدها المفضل، رواق طويل، سرير متحرك، وفد من الأطباء وامرأة حامل تصرخ من أعماقها أنقذوا طفلي.

تسللت الصرخات من داخل التلفاز لتعم أرجاء القاعة لحظتها سحبت العجوز يديها من بطنها وأمسكت بجهاز التحكم حتى تخفض من صوت الضجة ولم يخف عليها نظرات صديقة زمانها والتي بدت وكأنها تعاتبها خاصة وأنها اعتادت على هذا المشهد ولكن رغم ذلك لا زالت تجهل الوقت المناسب حتى تتحكم في الصوت وتتفادى هذا الموقف، قطع المشهد بفاصل إعلاني فاغتنمت العجوز الفرصة ورمقت صديقتها بابتسامة.

- تعلمين أنني أسرح في هذا المشهد في كل مرة أشاهد فيها هذا الفيلم.

- كما أعلم أنك تمسكين بطنك عوض جهاز التحكم وهذا ما سيكشف أمرنا يوما ما وبفضلك سنعاقب وسنحرم من وجبة العشاء.

- أمسك بطني يا عزيزتي حتى لا أنسى أنني تألمت يوما ما وأنني قد أنجبت طفلا في الماضي.

قالت تلك الكلمات وقد حط الحزن على ملامح وجهها وحتى لا تزيد من عمق الجرح واصلت حديثها قائلة :

- أما عن الطعام فلا تقلقي أبدا إذا حدث واكتشف أمرنا إنني أدخر القليل منه في غرفتي .

- أتمزحين هل سأقلق من أجل تلك الوجبات التي بدأت أشك أنها تصنف ضمن الأطعمة، بالإضافة إلى أنه حق من حقوقنا يكفينا أننا نقضي كل أيامنا في هذا المركز بدون نشاط هل سنحاسب إذا استرقنا بعض النظرات من التلفاز.

- معك حق ففي الأخير هذه دار عجزة وليست سجن .

فتح باب القاعة لتلتحق بهما الوافدة الجديدة والتي منذ وصولها إلى هذه الدار صارت تتخذ من الحديقة مكان لها لا تفارقها إلا عندما يشتد الحر في الخارج أو يشتد الألم في داخلها، ابتسمت عند رؤيتهما ثم التزمت مكانها قرب النافذة وسرحت بنظرها بعيدا .

- يبدو أنها تظن أن ابنها سيعود لاصطحابها .

- ونحن أيضا كنا نظن ذلك وقتها .

وحتى يخففا عنها ألمها دعاها لمشاركتهم في مشاهدة الفلم، انتهى الفاصل الإعلاني، سألتها العجوز إذا ما كانت تعرف بقية المشهد وعندما أجابت الوافدة الجديدة بالنفي

طلبت منها العجوز تخمين النهاية وإذا كان الطفل سيولد بالسلامة في رأيها، صمتت قليلا ثم قالت :

ليته لن ينجو... ليتها لن تلده أبدا

الخاتمة

كان يكفي أن تنظر حولك، كان يكفي أن ترى نظرات الناس، أن تحسب عدد الأشخاص الذين يحدثون أنفسهم أو الذين بدت عليهم علامات الجنون، كان يكفي أن تركب المواصلات.

لحظتها كنت ستفكر في الأعراض الجانبية للحياة، تلك الأعراض التي لن تجدها في أي وصفة ولا حتى دليل استعمال .

اقتباس للكاتبة "دلفين دو فيڤان"

الفهرس

الإهداء...05
اقتباس...07
يد باردة...09
إنارة...14
أحمل ندباتي وكأنها ميداليات...18
أسميتها...24
الغائب...28
حياة...32
أجنحة مبثورة...36
المكافأة...40
ثمن الخطيئة...44
حلم مؤجل...49
أنفاس متقطعة...53
الخاتمة...56

فاتن غنية خويلد: كاتبة جزائرية.

"أخبرتني أن الحياة سرقت منها حذاءها، فخُيِّرت بين خيارين إما أن تنتعل مقاسا أصغر من قدميها وتبتلع ألمها في كل خطوة تخطوها أو تختار المقاس الأكبر فتتعثر على طول الطريق. في كلتا الحالتين لن أشعر بمعاناتها مادمت أنتعل حذاء بمقاس قدمي.

وعلى سبيل المواساة نسجت أناملي "لحظات" أردت أن أقول لها من خلاله:

و ماذا لو سرنا معا حافيتين؟"

خيال

khayaleditions@gmail.com

9 789931 067788